الاتجاه النفسي في دراسة العقاد النقدية

للدكتور أحمد محمد الحوفي
أستاذ الأدب العربي ورئيس قسم الدراسات
الأدبية بكلية المعلمين - جامعة القاهرة -

اتجه العقاد في اعماله الادبية كلها الى استكناه النفوس ، وتحليل نوازعها ، ورد ما يصدر عنها الى بواعث قد تخفيها أستار من الأحداث والملابسات وأحكام الناس ، فنراه في العبقريات يدرس الشخصية ومعالمها ، ويتلمس مفتاحها . ونراه في شعره وفي نقده محللا ومعللا ومنقبا عن الدخائل : كأنما يفحص بالمجهر عن شيء في سائل .

يقول في دراسته لجميل بثينة : « وقد عنانا في هذا الكتاب أن نوفق بين البواعث النفسية والعوامل الطبيعية في سيرة جميل وبثينة ، وأن نفهم الأدب على مصباح من علم النفس ، ومن حقائق الطبيعة ، فلا نرجع به الى لفظ تلوكه الأفواه ، بل نرجع به الى وشائج تمتزج بالأبدان والأذهان (1) » .

ويقول صديقه الأستاذ محمد طاهر الجبلاوي : « وقعت في أيدينا في تلك الأيام قصة الأكاذيب للكاتب الفرنسي بول بورجيه ، وهو من رواد القصة النفسية ، فقرأها العقاد ، وقرأها أكثر من مرة ، وكنا نعجب لأحداثها التي تنطبق على ما نحن فيه ، ونتحدث عنها فيما بيننا » .

وللعقاد اعجاب كبير بهذا الكاتب ، فمذهبه القائم على التحليل النفسي هو مذهب العقاد الذي يتحراه في القصة وفي الشعر (2) .

وقد لخص العقاد المذاهب النقدية في ثلاث : مدرسة التحليل النفسي ، ومدرسة الدراسة الاجتماعية ، ومدرسة الأذواق الفنية .

وقال ان مدرسة التحليل النفسي هي أقرب المدارس الى الرأي الذي ندين به في نقد الادب ونقد التراجم ونقد الدعوات الفكرية جمعاء ، لأن العلم بنفس الأديب أو البطل التاريخي يستلزم العلم بمقومات هذه النفس من أحوال عصره ، وأطوار الثقافة والفن فيه ، وليس من عرفنا بنفس الأديب في حاجة الى تعريفنا بعصره وراء هذا الغرض المطلوب ، ولا هو في حاجة الى تعريفنا بالبواعث الفنية التي تميل به من أسلوب الى أسلوب .

وللنقد مدرسة اخرى محترمة كثيرة الأنصار في العصر الحديث على الخصوص ، بعد استفاضة البحوث حول الدعوات الاجتماعية ، وعلاقة الأديب بمطالب عصره . وموضع الملاحظة على هذه المدرسة أن الذي يعرفنا بأحوال المجتمع فحسب لا يستطيع أن يعرفنا بأسباب الفوارق الكثيرة التي تشاهد بين عشرات الأدباء من أبناء العصر الواحد ، ولا غنى له عن الرجوع الى « النفسيات » مع التعويل على « الاجتماعيات » في مسائل الأدب والتاريخ .

---

(1) جميل بثينة 8 .
(2) في صحبة العقاد للجبلاوي 167 .

اما المدرسة الفنية فهي مدرسة البلاغة والذوق، ومدرسة المعاني الرائعة والتعبير الجميل ، وهي تلجئنا لا محالة الى ذوق الأديب وذوق الناقد على السواء ، ومتى وصلنا الى الذوق فقد وصلنا الى النفسيات ، ووصلنا قبلها الى الاجتماعيات على لاجمال (3) .

وليس من غرض المفاضلة بين هذه المدارس ، او مناقشة العقاد فيما ذهب اليه ، بل سأكتفي بعرض اربعة نماذج من دراسات العقاد النفسية في ميدان الأدب وحده ، واعقب على كل منها بما أراه :

النموذج الأول
اجود الغزل

— 1 —

للقدماء رايان مختلفان في احسن الغزل واجوده ، فمنهم من يؤثر الغزل الذي يضفي على المحبوب هالة من الجمال ، فلا يلحق بها عيب ولا نقص ، حتى ليصور محبوبه مثلا اعلى في الملاحة والحسن والاغراء.

وهؤلاء يخلطون بين العشق والاستحسان ، وهما في حقيقتهما مختلفان ، لأن الاستحسان قد يكون من عاشق وقد يكون من غير عاشق ، ولأن العشق ليس معناه ان المراة المعشوقة اجمل في نظر عاشقها من كل امراة ، فلا غرابة في ان يحبها وهو عارف بعيوبها ، وعالم بمحاسن غيرها ، ولكنه لا يحبها .

ثم ان الحب قائم على الاضطرار لأعلى الاختيار ، فاذا راى المحب سيئات من محبوبه ، وبقي على حبه ، كان هذا ادل على قوة الحب من استمراره مع الاستحسان والاختيار .

ومعنى هذا ان المدرسة التي تجعل الاطراء والاستحسان مقياس الجودة في الغزل تجهل بواعث الغزل الجيد وتبعد عن حقيقته .

ومنهم من يتخذ رقة الغزل والمبالغة فيها مقياسا لجودة الغزل ، فالمحب الذي يبكي اغزل ممن لا يبكي، والذي يبكي كثيرا اغزل ممن يبكي قليلا ، والذي يتذلل ويتضرع اغزل من الذي يثور ويتبرم ، والذي يبسط خده موطئا لقدم محبوبته اغزل ممن يترفع .

وهذا راي قائل ، لان العشق حبالة لبقاء النوع ، قد يذهب العاشقان ضحية لها ، وقد يطغى فيه الجماح والسورة والغضب على الرقة و لرضا واللين والانقياد.

— 2 —

اما العقاد فيرى (4) أن أجود الغزل ما عبر عن عاطفة المتغزل تعبيرا صادقا ، سواء أوصف المحبوبة بالحسن العائق أم بالحسن المعتاد ، وسواء أكان رقيقا أم غير رقيق . فمجنون ليلى يقول :

كأن فؤادي في مخالب طائر
اذا ذكرت ليلى يشد به قبضا

كأن فجاج الأرض حلقة خاتم
علي فما تزداد طولا ولا عرضا

ويعلق العقاد على البيتين بقوله : ان قلب السامع لينقبض ، وان صدره ليحرج لهذا الوصف ، ومع هذا فأي شعر ابرع من هذا الشعر ؟ وأي شاعر أطبع واعشق من المجنون ؟ .

فوالله ما في القرب لي منك راحة
ولا البعد يسليني ولا أنا صابر

ووالله ما ادري بأية حيلة
وأي مرام او حظار اخاطر

وليس العشق الصادق حين يشب أواره بالعاطفة التي يود صاحبها دوامها ، ويستريح الى مناجاتها ، وانما هو غمة يود المبتلي بها لو تنقضي لساعتها ، ويقوم في نفسه عراك لا تهدأ ثائرته ، ولا يهنأ بالغلبة فيه ، لأنه هو الغالب وهو المغلوب ، وكأنما ينزع نفسه من نفسه ، فيضيق ذرعا ، كما قال المجنون
وهذا شبيه بقول كاتيولس
الشاعر الروماني : أيتها الآلهة ان كان لك رحمة بالقلوب الصديقة المشفقة فبحق براءتي عليك الا ما نظرت الى عذابي ، ورثيت لما بي ، ومسحت عني هذا الوباء الماحق والبلاء اللاحق ، وهذه اللوعة التي تسربت رعدتها في عروقي فشفت الهناء عن قلبي .

---

(3) مجلة قافلة الزيت مارس 1964 .
(4) شاعر الغزل العقاد .

ثم يوازن العقاد بين قول جنادة العذرى :

من حبها اتمنى ان يلاقيني
من نحو بلدتها ناع فينعاها
كيما اقول فراق لا لقاء له
وتضمر النفس يأسا ثم تسلاها
ولو تموت لراعتني وقلت آلا
يا بؤس للموت ليت الموت ابقاها

وقول المجنون :

فيا رب اذ صيرت ليلى هي المنى
فزني بعينيها كما رتها ليا
والا فبغضها الى واهلها
فاني بليلى قد لقيت الدواهيا

وبين قول كاتيولس : اني لأكره واحب ، تسألني كيف ذلك ؟ من يدري ؟ ولكني احس بحقيقة هذا الامر وشدة برحائه .

ويخلص من الموازنة الى ان نعت الحب بانه داهية ليس فيه شيء من الرقة والدماثة ، ولكنه وصف اتفق عليه شاعران ليس بينهما جامعة من ذوق لغة ، أو وحدة زمن ، لأنهما اجتمعا على عاطفة انسانية صادقة ، شاركهما فيها كل الشعراء الذين جربوا العشق .

وكذلك لا يشرط في الغزل الجيد استحسان شمائل المحبوب والمبالغة في اطرائها ، ولا التذلل والشكوى والضراعة .

واذا فالغزل الجيد هو التعبير الصادق عن الحب وعن نفسية المحب ، وهو بهذه المثابة كالبحر اللجي الذي تتيه فيه العقول ، ويتسع للناقض ، ويعج بضروب من المفاجآت ليس لها انتهاء .

ولهذا كان من الخطأ ان يحصره النقاد في قالب واحد وهيئة واحدة او لون لا يتبدل .

— 3 —

وبهذا خالف العقاد اصحاب الاستحسان واصحاب الرقة في نقدهم قول جميل :

رمى الله في عيني بثينة بالقذى
وفي الغر من انيابها بالقوادح

لانهم عابوه اذ سأل الله تشويه عيني حبيبته وثغرها ، وهما اجمل ما يتمنى له الجمال في وجه محبوبته ، فتجافى عن الرقة كلها ين دعا عليها ذلك الدعاء الغليظ يدعو به العدو على الد اعدائه .

وذهب العقاد الى ان هذا البيت ادل على عشق جميل من عشر قصائد غزلية تفيض بالرقة والثناء والاستحسان ، لأنه دليل على حب برح به ، وحار في الخلاص منه ، وغلب على مشيئته فيه ، وظن ان البلاء كله من جمال تلك الثنايا وتينك العينين ، فلم تبق له من حيلة الا ان يسأل اتلاف هذا الجمال ، عسى ان يطيق بعد ذهابه سلوه والراحة من بلواه .

فالبيت دليل على اعمق الحب واصدق الغزل ، ولك ان تقول انه غزل صادق من رجل سيىء ، او انه غزل صادق من رجل طيب في سورة اليأس والحيرة ، اما ان يكون مبطلا في عشقه وغزله لأنه تمنى تلك الأمنية ، فذلك غفلة عن العاطفة التي أمنته ، ولغو لا صدق فيه .

ولك ان تقول انها امنية رجل تغلب عليه الانانية . ويتلمس الراحة بما استطاع من وسيلة ، ولو كان فيها بلاء لمن يهواه ، الا انك لا تنسى أنه تمنى تلك الأمنية ، لأنه احب وضاق ذرعا بحبه ، وبلغ أقصى ما يبلغه العاشق من التعلق بالمعشوق والعجز عن الفكاك من اوهاق ، فهي ان شئت انانية ذميمة لا ترضى عنها الأخلاق الكريمة ، ولكنه حب قوي ، وتعبير صادق عنه .

— 4 —

ثم تعمق العقاد فيما لم يتعمق فيه سواه ، اذ اورد قول كثير عزة .

الا ليتنا يا عز من غير ريبة
بعيران نرعى في الخلاء ونعزب

كلانا به عمر فمن يرنا يقل
على حسنها جرباء تعدى واجرب

اذا ما وردنا منهلا صاح أهله
علينا فما ننفك نرمي ونضرب

وودت وبيت الله انك بكرة
هجان واني مصعب ثم نهرب

نكون بعيري ذي غنى فيضيعنا
فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

ولم يعلق النقاد على الأبيات باكثر من قولهم انها امنية سخيفة ، اذ تمنى كثير لنفسه ولمحبوبته الرق والجرب والرمى والطرد والمسخ ، فلم يبق مكروه لم يتمنه لها ولنفسه ، فصار جديرا بقول القائل : معداة العاقل خير من مودة الاحمق .

وعقب العقاد على هذا بأنهم صادقون ، لأنه ما من امنية ادعى الى الضحك والسخرية من هذه الأمنية .

ثم تغلغل الى نفسية كثير ، ليكشف عن بواعث هذه الأمنية الحمقاء ، فردها الى قماءته ودمامة منظره، وحماقته ، وضعف حيلته ، والى غيرته على عزة التي كان يخشى ان يغلبه عليها كل المزاحمين ، لأنهم أجمل منه منظرا . واقدر على الاغراء والاستهواء ، وقد فكر كثير في الوسيلة التي يأمن بها على صاحبته فلم يجد غير ابتلائها بالبلاء الذي يزهد الناس فيها ، فتصير له وحده . لأنه لا يستطيع أن يتحرر من حبها ، ولأنه عاجز عن حمايتها ، وهو لا يملك من الوسائل ما يملكه غيره من المنافسين .

على انه ليس يستبعد أن كثيرا راى البعيريين الموصوفين رؤية العيان ، لأن هذا منظر ينـدر أن يشاهده ابن البادية مرات ، فخيل اليه انهما سعيدان حيث يسرحان ولا يطلبهما راع ولا مالك ، فتمنى السعادة على هذا المنوال .

واذا كان سخيفا في أمنيته ـ ولا شك في ذلك ـ فهو محب صادق في التعبير عن حبه ، فلا علاقة بين سخف أمنيته واتهام عاطفته ، لأنه أحب فنغصه الحب، وحرمه الراحة من طريق غير هذا الطريق .

— 5 —

ومن هذا يتبين أن العقاد أرجع جودة الغزل الى ينبوع الغزل نفسه وهو الحب ، والى صدق التعبير عن الحب ، فاذا كان الشاعر محبا وعبر عن حبه في صدق فغزله جيد ، واذا كان غير محب أو كان محبا لم يستطع التعبير عن حبه فغزله ردىء .

لكن هذا المقياس ـ على انه قيم ـ ليس دقيقا الدقة كلها ، لأنه يعوزه شيء آخر هو جودة التعبير عن العاطفة الصادقة ، وبراعة تصوير العاشق لما يجيش بنفسه .

وذلك ان التعبير قد يتصف بالصدق ولكنه لا يتصف بالبراعة ، اذ أن المحب قد تجيش نفسه بعواطف صادقة ، ويحاول تصويرها بفنه القولي فلا يستطيع ، فيتمهل حتى تهدأ نفسه ، ثم يسترجع ما مضى ليعبر عنه تعبيرا ليس صادقا فحسب ، بل يجمع الصدق والروعة معا ، فيفلح مرة ويخفق مرة ، ويجيء في شعره الجهد ويجيء فيه غير الجيد .

لهذا كان هكسلي محقا في قوله : « يجب ان نتذكر ان قيسا وليلى وانطوني وكيلو باترة موجودون بيننا بكثرة لا تخطر على بالنا ، وذلك انه يصعب على عابر الطريق أن يقرأ على وجوه الناس مدى عمق عواطفهم ، وكل وسائله في هذا أن يحدس ويستنتج من تصرفهم وكلامهم ، لأن الفاظهم في الأكثر والأعم لا تسترعي الانتباه ، اذ ان التعبير الرائع هبة لم يمنحها الخالق الا فئة نادرة من الناس ، فليس ضعف التعبير دليلا على ضعف الشعور ، بل من المؤكد أن عدد المعبرين في جمال فني اقل بكثير جدا من عدد المحبين » .

ولو ان الصدق الشعوري والصدق التعبيري هما وحدهما المقياس الذي نقيس به الجودة لكانت قصائد الشاعر المحب على درجة واحدة ، فلا نستطيع ترجيح قصيدة على قصيدة ، ولكن الواقع غير ذلك ، لأننا حينما نقرأ شعر عروة بن حزام أو قيس أو جميل أو العباس بن الأحنف مثلا نفضل قصيدة على أخرى ، ذلك اننا لم نكتف بصدق الشعور وصدق التعبير ، بل اضفنا اليهما مقياسا آخر يتصل بالافتنان في تخير اللفظ ، وانتقاء العبارة ، وبراعة التصوير ، وحلاوة الجرس . ومعنى هذا اننا اضفنا الى المذهب النفسي المذهب الفني .

النموذج الثاني

ابو نواس والنرجسية

فصل العقاد البحث في النرجسية من حيث دلالتها ونشأتها وبواعثها ومظاهرها ، معتمدا على آراء الثقات من علماء النفس المحدثين .

ثم حاول تطبيقها على أبي نواس (7) ، فالبسه ثوبا فضفاضا لا ينسجم على قده ، وحكم عليه أحكاما تخرج به عن سمته وحده .

— 1 —

فالنرجسية شذوذ دقيق يؤدي الى ضروب شتى من الشذوذ في غرائب الجنس وبواعث الاخلاق ، لانها

(7) ابو نواس الحسن بن هانيء .

هيام الشخص بجسده او بنفسه الى حد الاستغراق والعبادة والتدليل والعشق .

ولهما شعاب عدة ، تخير العقاد منها ما يتصل بدراسة أبي نواس وموضوعات عشقه وغزله ، وأهمها شعبتان : احداهما الاشتهاء الذاتي
والأخرى التوثيق الذاتي
ومن أبرز ما يلازمهما ظاهرة التلبيس أو التشخيص ، وظاهرة العرض ، وظاهرة الارتداد .

اما ظاهرة التلبيس أو التشخيص فهي عشق الانسان ذاته عشقا شهوانيا ، فالشاذ في حب جنسه او حب الجنس الآخر يجد طلبته ، ويقضي مأربه ، اما الذي يشتهي بدنه فليس في وسعه أن يقضي مأربه منه بغير التحايل على ذلك بالتلبيس أو التشخيص ، ولهذا يلبس شخصيته شخصا آخر يتوهم انه هو ذاته او يحله محل ذاته .

واما ظاهرة العرض فتشمل الاظهار بجميع درجاته ، فقد يشاهد المصاب بها وهو يكشف عورته ، ويعرض اعضاءه ، ويتعرى من ثيابه ، وان كان الاكثر الاعم ان هذا لا يكون الا في حالة الجنون وما يقاربه .

واما الارتداد فانه يعتري النرجسيين من تلبيس ذواتهم بغيرهم ، او خلع ذواتهم على شخص آخر يتلمسون المشابهة بينهم وبينه ، فينتحل النرجسي صفة القوة من قوى يشبهه في القوام والملامح ، ويخالفه في القوة ، او يخلع ذاته على امراة مشتهاة يجد شبها بينها وبينه .

— 2 —

وقد حاول العقاد ان يطبق هذه الظواهر على ابي نواس ، وان يفسر بها جميع احواله .

1 ــ فشذوذه الجنسي نرجسية مظهرها التلبيس والتشخيص .

وقد بدا هذا التشخيص في غزله حين اختار لهواه غلاما الثغ مثله ، وان كانت لثغة أبي نواس بالراء ولثغة الغلام بالسين :

وابابي الثغ لا جحته
فقال في غنج واختناث

لما راى من خلاقي له
كم لقي الناث من الناث

وبدأ في اختياره غلاما لا يحسن النطق بالراء تكسيرا لها :

بكسر الراء وتكسيرها
يدعو مسقم الى الحتف

وبدأ في اعجابه بالبحة التي كانت من خواص صوته ، فقال في وصف غلام :

وبه غنة الصبا تعتليها
بحة الاحتلام للتشريف

وكذلك ذكر مثال الحسن في الذكور والاناث ، في قوله :

ولو انها في الحسن كانت كيوسف
وبلقيس او كانت كخط مثال
وقالت تزوجني على مهر درهم
لقلت اعزبي عني فمهرك غال

ثم ذكر العقاد ان الجارية جنان كانت احب معشوقاته اليه ، وانها كانت تحب النساء وتميل اليهن ، وظن ان كلف ابي نواس بها ربما كان من ظواهر نرجسيته ، لان لازمة التشخيص تتحقق بها على نحو لا تتحقق بغيرها .

ورجع ان هيامه بالجارية (حسن) راجع الى تشابه اسمها واسمه ، حتى انه تشفع بهذه المشابهة في قوله:

ان لي حرمة فلو رعيت لي
لا جوار ولا اقول قرابة
غير اني سمي وجهك لم
احرمه في اللفظ والهجاء والكتابة

2 ــ وطبق عليه ظاهرة العرض ، ليبين انه لم ينظم شعرا في الخمريات او الغزل او المجون الا تبين منه ان الجهر بالمحرمات ادنى الى هواه من الاستمتاع بها .

وذلك ان بعض الناس قد يولع بالاباحية ويجاهر باللذات ، ويطيب له الخروج على العرف وعلى المألوف ، لمهانتهم على انفسهم وعلى الناس ، فلا يبالون ، لانهم نسوا شخصيتهم ، وبعضهم قد يقترف هذا لتعاليهم على العرف وعلى الناس ، ولرغبتهم في تقرير شخصيتهم .

ولم يكن ابو نواس من الفريق الاول ، لان اخباره واشعاره تنفي ذلك عنه .

وانما كان من الفريق الثاني المبالغ فى تهتكه ومجاهرته بما يقترف من آثام .

لهذا يقـــول :

الا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمـــر
ولا تسقني سرا اذا امكن الجهـــــر

ويقـــول :

أطيـب اللـــذات ما كـــــان ـ
جهـــــارا بافتضـــــــــاح

وله فى هذا المجال شعر كثير .

3 ـ ثم حاول العقاد أن يطبق عليـــه ظاهـــرة الارتداد ، من وصف لنشاطه ، وكلف بالخليفة الامين ، وولعه بالجارية حسن .

— 3 —

وليس من شك فى أن العقاد كان بارعا فى هذه المحاولة ، اذ استطاع ان يلخص معالم النرجسية ، ثم حاول ان يطبقها على حياة أبى نواس وشعره .

ولكن هذا لا ينفي ان فى التطبيق الوانا من مظاهر التمحل والاعتساف .

1 ـ فلا يصح أن تتخذ من غزل أبى نواس بغلام الثغ دليلا على ظاهرة التشخيص ، لأن لثغة ذلك الغلام تغاير لثغة أبى نواس ، ولأن الشعراء كانوا كثيرا مـــا يستمنحون أمثال هذه اللثغة فيمن يحبون من اناث وذكور ، كما كانوا يستملحون اللحن من الفتيات ومن الحســـــان .

وليس من الصواب أن يكون اعجاب أبـــى نواس بالبحة فى صوت غلام آخر مظهرا للتشخيص ، فان مصدر هذا الاعجاب الاستملاح والاستطراف والارتياح الى هذا الصوت ، وهو اعجاب صالح لأن يصدر عن أبى نواس وعن غيره من الرجال .

واما تمثيله للجمال الفائق بيوسف فانه تمثيل للتفوق والامتياز ، ولا دليل فيه على تشخيص وتلبيس، اذ انه أراد أن يصور اصراره على رفض الزواج من المراة التي وصفها ، مهما تبلغ من الاغراء ، فقال انها لو بلغت من الجمال أعلى درجاته ، ومهما يهبط مهرها الى ادنى دركاته ، فانه لن يرضاها زوجة له . واذا كان قـــد ضرب المثال بيوسف وبلقيـــس ، فان الشعـــراء والقصاص قد نصبوهما مثلا اعلى للجمال .

ثم ان حبه للجارية جنان لا ينبـــيء عن تلبيس وتشخيص ، بدعوى انها كانت تحب النساء وتميـــل اليهن ، فان حبها لم يكن مقصورا على النســـاء دون الرجال ، وهي فى الوقت نفسه جارية مغنية لا يتطلب منها أن تنافس الحرائر ، أو تكاشف النساء بالعداء .

على انه احب الجارية دنانير وتغزل بها ، وتغزل بعشر من الجواري الحسان ، منهن عنان التي غلبته فى مساجلة بالأدب المكشوف على مسمع ومرأى من وجوه بغـــداد .

فلم يكن حب أبى نواس مقصورا على الجاريـــة جنان ، ولم يكن حبه لها عميقا طويل الاجل ، فانـــه احبها فى مطلع شبابه ، ولم يلبث حبه ان خمـــدت جذوته ، وكان معاصروه يشكون فى صدق هذا الحب وحـــرارتـــه .

كذلك يبدو التكلف فى الاستدلال على التشخيص بأن أبا نواس هام بالجارية (حسن) لأن اسميهمـــا متشابهان ، فان هذا الهيام واقع لا محالة ، سواء أكان اسمها ذلك ام غير ذلك ، والا فلماذا هام بدنانير وعنان وجنان ونرجس ، وليس بين اسمه وأسمائهن تشابه او اتفـــــاق ؟

ومن التضييق على ابى نواس ان نحجر عليـــه التلاعب بالاسمين المتشابهين عن طريق المصادفة لا عن طريق التعمد والاختيار ، كما تلاعب المتنبي فيما بعد باسم سيف الدولة ، فشقق منه الوانا من المعاني والأفكار والخيال .

2 ـ وعجيب أن يتخذ العقاد من مجاهرة أبـــى نواس بخلاعته دليلا على نرجسيته ، وعلى ظاهـــرة العـــرض .

فقد عرف العالم عشرات من الأدباء المولعيـــن بمثل هذه المجاهرة ، لأنهم يجدون فيها انواعا مـــن التعالي أو التظاهر أو التفرد بالخروج على المألوف أو الاستهانة بالقيم التي يقدرها المجتمع الخ .

من هؤلاء فى الأدب العربي الأعشى وسحيـــم وامرؤ القيس وعمر بن أبي ربيعة ونصيب وابن سكرة وكثير من شعراء اليتيمة .

ومنهم فى الأدب الغربي بيرون وكازانوفا ، ولم يوصف واحد من هؤلاء او اولئك بالنرجسية او بظاهرة من ظواهرها المعروفة .

وقد كان بايرون (8) يجاهر بعلاقاته ، ويسجلها في شعره .

وعرض كازانوفا (9) قصة حياته عريانة في غير احتشام ، على ما فيها من مثالب ومخاز تحمر منها وجوه اكثر المجان من رجال ونساء ، ولم يكن غرضه تبرير احدانه او التهوين من قيم المجتمع ، او المباهاة بما اقترف ، وانما كان راوية دقيقا امينا لا يعنيه الا التسجيل للخير وللشر وللحرام وللحلال .

3 ـ واذا كان ابو نواس جميل الوجه ، حسن السمت ، مفترا بفراهة بدنه ، فقد كان ابو القشير كذلك ، وكان يفاخر ابا نواس بجماله .

ذكر ابن منظور في اخبار ابي نواس : قال ابو القشير : نظمت الشعر وانا غلام وابو نواس غلام ، وكنا جميعا نضرب بالعود ، وكنت احسن وجها من ابي نواس ، وابو نواس اطيع ، فتفاخرنا بالشعر وغيره ، ثم قلت له : اني اجمل منك وجها ، فقال : بل انا احسن منك وجها وافره .

والذي يتبين من هذه المفاخرة ان ابا القشير فاخر ابا نواس بجماله ، ولم يكن شعوره بتفوقه في الجمال ناشئا عن نرجسية ، وان ابا نواس رد على الفخر بمثله وزاد عليه قوة جسمه ، فلا دليل في هذا على نرجسية ابي نواس .

على ان كثيرا من الغلمان كانوا وما يزالون في هذه السن يتباهون بجمالهم وفراهة اجسامهم ، حتى ليعارضون عضلات بعضهم بعضلات بعض ، وحتى ليتصارعون ويتسابقون ، وهم ابرياء من مرض النرجسية واعراضها .

4 ـ اعتمد العقاد على وصف ابن منظور لابي نواس بانه كان حسن الوجه ، رقيق اللون ابيض ، حلو الشمائل ، ناعم الجسم ، منسدل شعر الراس ، الثغ بالراء يجعلها غينا ، وكان نحيفا ، وفي حلقه بحة لا تفارقه .

وذكر بعض ابيات لابي نواس ، كقوله :

تتيه علينا ان رزقت ملاحة
فمهلا علينا بعض تيهك يا بدر
فقد طالما كنا ملاحا وربما
صددنا وتهنا ثم غيرنا الدهر

واستنبط العقاد من هذا ان ملامح النرجسية تكاد تتمثل من هذه الأوصاف ، فالبياض والرقة والنعومة والملاحة والشعر المتهدل أشبه ما تكون بملامح الفتى نرجس ، الذي حنا على الجدول فاستحال نرجسة ، واتخذه الأسطوريون اليونان نموذجا للجمال .

وقال ان اللثغة وبحة الصوت تشيران الى تكوين وسط بين كيان الصبي وكيان الشاب الناضج .

ولكن هذا الحكم فيه تجوز كبير ، فليس من الحتم اللازب ان يكون بياض البشرة وغضارتها وتهدل الشعر علامة من علامات النرجسية ، فطالما اشتهر رجال من الشرق والغرب بصفات الملاحة والجمال ، وهم بعداء عن النرجسية أيما بعد .

حسبنا ان نذكر منهم ابا القشير الذي فاخر ابا نواس بجماله ، ونصر ابن حجاج الذي افتتن به نساء المدينة ، فاضطر الخليفة عمر بن الخطاب الى نفيه منها ، وذلك انه كان يمس في ليلة كعادته ، فسمع امراة تنشد شعرا وهي في بيتها ، منه :

هل من سبيل الى خمر فاشربها
ام من سبيل الى نصر بن حجاج ؟

فلما اصبح الصباح استدعى نصرا ، فاذا هو شاب جميل يفتتن بمثله النساء ، فأمر بحلق شعره ، وهو يريد التقليل من جماله ، فازداد جمالا ، فأمر بنفيه الى البصرة منعا للفتنة .

ومنهم بايرون ، فقد كان آية من آيات الجمال ، وكان شعره الذهبي يتهدل على جبينه في خصلات متموجة ، وله عينان زرقاوان يخالطهما لون رمادي ، وتحيط بهما اهداب غزيرة طوال ، وشفتاه قرمزيتان ، وانفه رقيق لطيف ، وقدم رشيق ، وبشرته شفافة كانها البلور ، وصوته رخيم كانه نغمات والحان . واما اللثغة بالراء فانها اضطراب في النطق يصيب كثيرا من الناس ، وقد اشتهر بها واصل بن عطاء ، وكان يهرب منها باجتناب حرف الراء في دروسه وفي خطبه .

واما بحة الصوت فليست دليلا على تكوين وسط بين كيان الصبي وكيان الشاب الناضج ، لأنها ضعف في الحنجرة يعتري بعض الأسوياء الذين لا يوصفون بلون من الوان الانحراف ، سواء أكانوا من الذكران ام من الاناث .

---

(8) بايرون : امينة السعيد .
(9) كازانوفا : ستيفان زفايج ـ ترجمة دار الهلال

ذلك ليست الضفيرة المرسلة من شعر رأسه دليلا على ان أهله وجدوه شبيها بالبنات ، فأرسلوا ضفيرته ، اذ ان بعض الناس كانوا وما زالوا يرسلون ذوائب وضفائر للذكور الصغار ، للتدليل والتمليح فحسب . وان كان شكلهم أبعد ما يكون عن الجمال وعن الشبه بالاناث .

ولهذا فلا مندوحة من العناية بالأحوال الاجتماعية والسياسية في دراسة شخصية ابى نواس ، لأن شخصيته وليدة نفسيته من ناحية ، ووليدة بيئته من ناحية .

ومعنى هذا ان نعتمد على المدرسة النفسية والاجتماعية معا في دراسة شخصيته .

اما دراسة فنه فلا بد أن نعتمد فيها على المدرسة الثالثة وهي المدرسة الفنية مع هاتين المدرستين .

النموذج الثالث

تطير ابن الرومي

— 1 —

لم يعرض احد من القدماء أو المحدثين الى دراسة ابن الرومي الا عرج على تطيره ، وضرب الأمثلة من حياته ومن شعره على تشاؤمه . واغلب الظن ان الأحداث التي ذكروها عن تطيره حقائق واقعة ليس فيها تزيد ولا مبالغة ، لأنه هو نفسه سجل تشاؤمه في شعره ، ودافع عنه ، اذ كان يعرف من نفسه انها شديدة الحذر ، ويرى أن الحذر سلم الى الأمان :

فآمن ما يكون المرء يوما
اذا لبس الحذار من الخطوب

وكان يحتج للطيرة ، ويقول ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ، ويكره الطيرة ، اتراه كان يتفاءل بالشيء ولا يتطير من ضده ؟ وقال ان النبي مر برجل وهو يرجل ناقته ويقول يا ملعونة ، فقال : لا يصحبنا ملعون . وذهب الى ان الطيرة اصيلة في الطباع ، وان كانت اظهر في بعض الناس من بعض .

وذكر عنه عبد الله بن المسيب انه دخل علينا يوما مهرجان ، وعند عبد الله عدة من القيان الحسان اهدين اليه ، فيهن صبية حولاء وعجوز في احدى عينيها نكتة ، فتطير من ذلك ، ولم يظهر لي امره ، فلما مضت مدة سقطت لي ابنة من السطح ، وجفاه القاسم ابن عبيد الله ، فعزا الحادثين الى الحولاء والعجوز ، وكتب الى بقصيدة ، منها :

ايها المحتفي بحول وعور
اين كانت منك الوجوه الحسان ؟
قد لعمري ركبت امرا مهينا
ساءني منك ايها الخلصان
فتحك المهرجان بالحول والعو
ر أرانا ما اعقب المهرجان
كان من ذلك فقدك ابنتك الحر
ة مصبوغة بها الأكفان
وتجافى مؤمل لي جليل
لج فيه الجفاء والهجران
خبر الله ان مشامة كا
نت لقوم وخبر القيروان
افزور الحديث يقبل ام ما
قاله ذو الجلال والفرقان ؟

واذا فلا غرابة فيما قصوا من احداث تشاؤمه كقولهم ان أبا الحسن علي بن سليمان الأخفش غلام ابى العباس المبرد ، كان شابا ظريفا ، وكان يعبث بابن الرومي ، فيقرع بابه سحرا ، فيقال له : من ؟ فيقول : قولوا لأبي الحسن : مرة ابن حنضلة . فيطير ابن الرومي ، ويقيم في بيته اياما لا يبرحه .

وقال علي بن ابراهيم كاتب مسروق البلخي : كنت بداري جالسا ، فاذا حجارة سقطت بالقرب مني ، فأمرت الغلام بالصعود الى السطح والنظر الى كل ناحية ، ليعرف من أين تأتينا الحجارة، فعاد الي يقول : امرأة من دار ابن الرومي الشاعر قد تشوفت وقالت : اتقوا الله فينا ، واسقونا جرة ماء ، والا هلكنا ، فقد مات من عندنا عطشا . فأرسلت اليها امرأة من عندنا بالماء والطعام ، فلما عادت قالت : ان الباب مقفل عليهم منذ ثلاث ليال بسبب طيرة ابن الرومي ، لانه كان يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ ، ثم يمشي الى الباب والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب الباب ، فتقع على جار له نازل بازائه وهو رجل أحدب يقعد كل يوم على الباب ، فاذا نظر اليه ابن الرومي رجع وخلع ثيابه ، وقال لا يفتح الباب أحد (10) .

(10) زهر الآداب 2 / 188 .

وذكروا ان احد الامراء أرسل اليه خادما يستدعيه اسمه اقبال ، ليتفاءل باسمه ، فلما اخذ اهبته للركوب قال للخادم : انصرف الى مولاك ، فانت ناقص ، ومعكوس اسمك (لا بقا) (11) .

وارسل اليه بعض اصحابه غلاما اسمه حسن ، فطرق الباب عليه ، فقال : من ؟ قال : حسن ، فتفاءل به وخرج ، واذا امام الباب حانوت خياط صلب عليها دراعتين بالهيئة اللام الف ، ورأى تحتها نوى تمر ، فتطير وقال : هذا بشير بأن (لا تمر) ، ورجع ولم يذهب معه (12) .

— 2 —

وقف الدارسون على اختلاف اعصارهم عند هذا الحد ، فلم يتجاوزه الى استكناه تطير ابن الرومي ، واستشفاف ما وراءه من عوامل كانت السبب في نشأته وفي نمائه .

اما العقاد فانه لم يقنع بما قنعوا به ، فجعل يحلل تشاؤم ابن الرومي ويعلل له ، ويربطه بعوامل نفسية ، ويلائم بينها في دقة وحصانة ومهارة وتوفيق .

ونستطيع ان نتبين من دراسته لتطير ابن الرومي ان مراجعه الى نوع من الاختلال العصبي والاضطراب النفسي (13) .

ذلك انه كان ضعيف الاحتمال لحرارة الصيف ، يعاني منها ما جعله يقول :

قد مضى اكثر الشتاء وجاء الصيـ
ـف تعدو فلا ترده البطاء
يا عليما بما اكابد فيه
لا تعاونه ان فيه اكتفاء

قد مضى اكثر الشتاء وجاء الصيف يعدو فلا تزده البطاء وكان متوفر الحس الى اقصى حد ، يهيج اعصابه اهون مس ، ويستفزه ايسر حادث ، حتى ان الروائح القوية كانت تؤذيه وتصدعه ، وهذا هو السبب في ذمه الورد ومدحه النرجس .

وكانت مشيته ـ كما وصفها هو ـ مشية المختلج كأنه بين يديه غربا لا يديره :

ان لي مشية اغربل فيها
آمنا ان اساقط الاسقاطا

وهي مشية تشيع في المصابين باختلال في العصب او العضل .

وكان مسرفا في كل امر من اموره ، لا تصده عزيمة ، ولا يرده ضابط ، كان مسرفا في طعامه وشرابه وشهواته ، ومسرفا في تهكمه وهجائه ونكاته ، ومسرفا حتى في استقصاء المعاني ، ولا سبب لهذا الاسراف الا توفر الحس ، والاستجابة للرغبات ، والعجز عن كبحها ، والانقياد لما تمليه اللحظة الحاضرة .

وفي رأي العقاد ان خضوع ابن الرومي لكل احساس طارىء ، واستغراقه فيه ، لم يترك له منفذا الى التفكير في عقابه ، وجعله لا يعادل عما يزينه له الحس والخيال الى ما تمليه عليه الحكمة والحصانة .

واذا كان مزاجه قد اغراه بالاسراف فان اسرافه جنى على مزاجه ، لان اسرافه الموكل بالاستقصاء في كل مطلب ورغبة خليق أن يسقم جسمه ، وينهك اعصابه ، ويتحيف على صوابه ، وهو في الوقت نفسه لم يسرف هذا الاسراف الا وفي جسمه سقم ، وفي اعصابه خلل ، وفي صوابه شطط .

— 3 —

ويذهب العقاد الى ان المرء قد تختل اعصابه فينقلب جريئا جسورا عنيدا مقتحما للمخاطر والاهوال ، مستهينا بالعواقب وما يقترن بها من آثار ، وقد تضرب اعصابه فيصير وديعا مطيا شديد الخوف والحذر ، هيابا للصفائر ، مبالغا في حسبان النتائج والعواقب الى حد التوهم . وقد كان ابن الرومي من الطراز الثاني .

كان مريض النفس مختل الاعصاب فتطير ، والرجل السليم لا يتطير ، لانه يتوقع من الدنيا خيرا ، ولا يحس نفرة بينها وبين نفسه ، ولا يتسلف الفزع من مكاره موهومة ، فاذا اصابه مكروه تلقاه بعزيمة ضابطة لمشاعره فلا افراط في الجزع ، ولا استسلام للفزع .

---

(11) العمدة 1 / 40 .
(12) معاهد التنصيص 1 / 43 .
(13) ابن الرومي للعقاد 65 ، 116 ، 117 ، 127 ، 130 ، 200 ، 209 .

وكثيرا ما تبلغ الطمأنينة بالرجل السليم الى التفاؤل المستسلم للأمن الصادق والكاذب ، كما يستسلم المتطير للفزع والتوهم الصحيح والزائف .

— 4 —

واذا فقد كان تطير ابن الرومي مظهرا لاختلال اعصابه واضطراب نفسه ، وكان ضعف اعصابه وشدة حذره ومزاجه المتشائم تزين له أن يتوجس الشر في كل شيء ، وان يقلب الكلمة او الفكرة على ما تحتمله وما لا تحتمله من حالات ، ليستخرج منها ما يمكن ان تؤديه وتدل عليه ، وسرعان ما ينتقل ذهنه بين المعاني ونظائرها واشباهها ، وبين الكلمات وما يجانسها ويشاكلل احرفها واوزانها ، فلا يعوزه ان يعثر بما يوافق نفسيته الحذرة .

ومن هنا كانت كلمة (جعفر) مثلا تساوي عنده (جاع وفر) وكلمة (الخان) تذكره بكلمة الخيانة :

فكم خان سفر خان فانقض فوقهم
كما انقض صقر الدجن فوق الأرانب

بل ان خياله المتشائم امتد الى تصحيف الكلمات فقال في القينة :

لا تلح من تفتنه قينه
فان تصحيف اسمها فتنة

وقال في شخص ابوه اسمه هرثمة :

عائذ دهره اذا سطع النقيـ
ـع بمعنى مصحف اسم ابيه

وصحف اسم عمرو الى عير في قوله :

يا عمرو لو قلب ميم مسكنة
باء محركة لم تخطىء الفقر

ولقد استبد به الوساوس في اواخر حياته ، فصار آفة غلابة على اقواله وافعاله ، لا محيص له عنها ، فافرط في الطيرة ، واشتد خوفه من الماء ، حتى كان لا يركب سفينة مهما تكن مأمونة ، ومهما يكن في ركوبها من اغراء ، يدل على هذا قوله في وصف سفر بدجلة :

واما بلاء البحر عندي فانه
طواني على روع من الروح واقب
ولم لا ، ولو القيت فيه وصخرة
لوافيت منه القعر اول راسب
ولم لا اتعلم قط من ذي سباحة
سوى الغوص والمضعوف غير مغالب
فأيسر اشفاقي من الماء انني
امر به في الكوز مر المجانب
واخشى الردى منه على كل شارب
فكيف بأمنية على نفس راكب ؟

اظل اذا هزته ريح ولألأت
له الشمس ملواجا طوال الغواب
كأني ارى فيهن فرسان بهمه
يلوحون نحوك بالسيوف القواضب

— 5 —

ذلك تعليل العقاد لتطير ابن الرومي ، وهو تعليل في رايي صواب كله ، لان مرده الى نفسية الشاعر لا الى مؤثرات اخرى من السياسة والاجتماع .

اما اذا اردنا دراسة شعره المتطير فالأجدر بنا ان نبني دراستنا على المذهب النفسي والمذهب الفني والمذهب الاجتماعي جميعا .

النموذج الرابع

ولع المتنبي بالتصغير

— 1 —

كان ابو الطيب مولعا بالتصغير الى حد لم يمائله فيه شاعر ، ولم يخف هذا الولع على دارسيه ، ولكنهم اذ تنبهوا للظاهرة لم يتعمقوا في التعليل لها .

وحسبنا ان ابا العلاء اجاب ابن القارح حينما سأله عن هذه الظاهرة بقوله : « كان الرجل مولعا بالتصغير ، لا يقنع منه بخلسة المغير ... ولا ملامة عليه ، انما هي عادة صارت كالطبع تغتفر مع المحاسن ».

— 2 —

ويعلق العقاد على كلمة المعري بقوله : لا شك انها عادة كما قال المعري ، ولكن اي عادة هي ؟ امن عادات اللفظ ؟ ام من ضرورات الوزن ؟ ام من عبثات اللسان ؟

ويجيب بقوله : لا ، ولكنها فيما نظن عادة في الطبع والخلق ، وما صارت كالطبع كما قال المعري الا لانها من الطبع ، وفيها ترجمة عنه ، ومجاراة لنوازعه .

ثم يعلل لهذا الكلف تعليلا تفرد به ، وذلك ان المتنبي كان يتعالى بنفسه على التكسب بالمدائح والزلفى الى الملوك والامراء ، وكان يرى انه خلق لما هو اجل ، وارفع من ذلك ، وهو امللك والقيادة ، فلا يبالي ان يطول على ذوي السلطان بهذا الاعتقاد فى قصائده التي يمدحهم بها .

وكان يؤنب نفسه اذا ما آنس منها ركونا الى حياة الدعة ، واطمئنانا الى منامه بين حاشية الأمراء واتباعهم المتكلين على عطاياهم ، فيحفزها وينحيها عن هذا المقام ، ويذكرها ما اعدت له من المجد والعظمة .

لكن المتنبي كان شريكا فى العظمة الدنيوية والاخلاق العلمية فى كل ما هو من باب الشعور والملاحظة ، ولم يكن شريكا فى كل ما هو من باب الانجاز والتنفيذ . كان يشعر شعور عظماء الأعمال ، ويقيس الامور بمقاييسهم ، ويلزم نفسه الجد الذي يلتزمون فى حركاتهم وسكناتهم ، وتساوره المطامع التي تساورهم ، ولكنه لا يتم الأمور كما يتممونها ، ولا يسوس الحوادث كما يسوسونها . كان مطبوعات على غرار رجال المطامع ولكن فى داخل نفسه لا فى ظاهر عمله ، فله فى خلقه وتفكيره استعداد عظماء الاعمال ولكن بغير دااة العظمة .

واذا كان شعوره بالعظمة قد بدا فى المبالغة والتهويل والتفخيم احيانا فان شعوره بالتأفف والاشمئزاز والتحقير قد بدا فى التصغير احيانا اخرى ، فاذا ازدرى شيئا ضئيلا او رجلا حقيرا فذلك ازدراء يشوبه الضغن ، ويضاعفه ظل العظمة الملقى عليه ، فاذا الشيء شوىء واذا الرجل رجيل .

واكثر ما يصغر المتنبي حين يهجع مغيظا محنقا ، او يستخف متعاليا محتقرا ، كما يقول فى كافور .

اوى اللئام كويفير بمعذرة
فى كل لؤم وبعض العذر تفنيد

وكما يقول فى الشعرا الذين يزاحمونه :

اني كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيف يقاويني قصير يطاول

وكما يقول فى اهل زمانه .

اذم الى هذا الزمان اهيله
فأعلمهم فدم وحزمهم وغد

ذلك تعليل العقاد لولوع المتنبي بالتصغير ، ولا شك انه تعليل صادق ، لانه ارجع التصغير عند المتنبي الى شعوره بالعظمة والى ازدرائه الناس .

ولكن العقاد تجاوز عن عامل آخر ربما كان ادعى الى ولوع المتنبي بالتصغير من هذه العظمة المصطنعة التي يمازجها احتقاره للناس .

وذلك ان المتنبي فيما أرى كان ينفس بهذا التصغير عن موجدته وحنقه وشعوره بالعجز عن تحقيق ما يتشهاه ، فقد ذم الحياة ، وادعى انها لا تواتي الا الاغبياء والحمقى ، كقوله :

فما ترجى النفوس من زمن
احمد حاليه غير محمود

وقوله :

ومن صحب الدنيا طويلا تقلبت
على عينه حتى يرى صدقها كذبا

وقوله :

فنرى الدار اخون من مومس
واخدع من كفة الحابل

وقوله :

من خص بالذم الفراق فانني
من لا يرى فى الدهر شيئا يحمد

وقوله :

وشبه الشيء منجذب اليه
واشبهنا بدنيانا الطغام
ولو لم يعل الا ذو محل
يعالى الجيش وانحط القتام
ولو لم يرع الا مستحق
لرتبته اسامهم المسام (14)

وكذلك حنق على الناس ، لانهم نالوا ما لم ينل ، وبخاصة اصحاب الغنى والمجد والجاه ، وساء رأيه فيهم وفى اخلاقهم .

---

(14) المسام : الرعية . الضمير فى اسامهم يعود الملوك المذكورين فى اول القصيدة : اي لو كانت الامارة بالجدارة لوجب ان يكون الملوك رعية و رعيتهم ملوكا لانهم احق منهم بالملك .

من ذلك قولـــه :

انما انفس الانيـــس سبـــــاع
يتفارســـن جهـــرة واغتيـــالا
من اطاق التماس شيء غلابـــــا
واغتصابا لـــم يلتمســـه ســـؤالا
كل غـــاد لحاجـــة يتمنـــى
أن يكون الفضنفـــر الرئبـــــالا

وقـــولـــه :

اذا ما الناس جربهـم لبيـــــب
فاني قـــد اكلتهـــم وذاقـــــا
فلم ار ودهـــم الا خـــداعـــــا
ولم . ار دينهـــم الا نفاقـــــا

وقـــولـــه :

ولا تشك الى خلق فتشمتـــــه
شكوى الجريح الى الغربان والرخم

وقـــولـــه :

وكن على حذر للناس تســـتـــره
ولا يغرك منهم ثغر مبتســـــم
غاض الوفاء فما تلقاه فى عـــدة
واعوز الصدق فى الاخبار والقسم

فليس اذن على المتنبي ان يكلف بالتصغير ، لانه فى تعبيره لون من الهجاء والتحقير ، وضرب مـــن الاستهانة وقلة المبالاة ، ومبعث ذلك كله التنفيس عما يعتمل فى نفســه من عوامل متعددة ، اهمها الغـــرور والتعالي المصطنع ، والسخط على الحياة ، والموجدة على الناس ، ولهذا يقول :

اذم الى هذا الزمـــان اهليـــــه
فاعلمهم فدم واحزمهم وغـــــد
واكرمهم كلب وابصرهم عـــــم
واسهدهم فهد واشجعهم قـــرد

على انني لا اوافق العقاد فى قوله « ان المتنبي اذا ازدرى شيئا ضئيلا او رجلا حقيرا فذلك ازدراء يشوبه الضغن » لان المتنبي المتعاظم لا يضطغن على رجل حقير ، وكيف يحقد على الحقير وهو لا يتطلع اليه او يباريه او يباليه ؟ بل يضطغن على العظيم لانـــه قصر عن بلوغ غايته ، او لان الحظوظ التي نولت هذا العظيم اسباب علاه ضنت على المتنبي بما كان يصبو اليـــه ويتشهـــاه .

واذا فان كلف المتنبي بالتصغير كان صدى لما يعتمل فى نفســه ، وكان صدى للحيـــاة السياسيـــة والاجتماعية فى عصره ، اذ كان عصر امارات وثورات ووثبات الى الحكم هنا وهناك ، وكانت القوة والحيلة والدهاء اهم الوسائل لظفر الطامحين الى الحكـــم ، والطامعين فى السلطان ، وكانت الاحقاد والدسائس والنفاق والملق والمنافسات واستكانـــة الشعـــوب واستبداد الحكام فاشية فى المجتمعات .

النتيجـــة

لعله قد تبين من هذه اللمحات ان الدراســـة النقدية لا يصح ان تنحصر فى نطاق المدرسة النفسية التي آثرها العقاد ، ولا يسوغ لناقد ان يقصرها على اصول المدرسة الاجتماعية وحدها ، او يحصرها فى مجال المدرسة الفنية معزولة عن غيرها ، فانـــه لا مناص من اعتماد الناقد على هذه المدارس جميعا ، لان بعضها يخدم بعضا ، ولان بعضها يجدي حيـــث لا يجـــدي ســـواه .

واذا كان الاعتماد على المذاهب الثلاثة هو المنهج السليم الكامل ، فان الدارس او لناقد ليس محتومـــا عليه ان يطبقها جميعا فى كل حالة من الحالات ، فقد يكون الاستئناس بمصابيحها كلها هو الهـــادي الـــى الطريق ، وقد يكون فى مصباحين او مصباح واحـــد غنـــــاء .

وعلى الدارس والناقد ان يتخير فى دراستـــه الاجتماعية والسياسية ما يتصل اتصالا وثيقا بالشخصية التي يعرضها ، او النص الذي يدرسه ، وان يبتعد فى دراسته النفسية والفنية عن التكلف والاعتساف ، حتى لا يلبس الشخوص او يضفي على النصوص اردية واسعة العرض ، او مفرطة الطول ، او ضيقة عـــن القـــدود .